



إذا لاحظت أن الدولة التي ناصبت الربيع العربي العداء منذ لحظاته الأولى هي ذاتها التي تقود تحولات المنطقة في الوقت الراهن، فإن ذلك يُعد مؤشراً يمهد للإجابة عن السؤال: إلى أين نحن ذاهبون؟

(1)

المنطق أعلاه ختمت به مقالة الثلاثاء الماضي (11/3/2014) التي كان عنوانها "نحن نزرع وإسرائيل تحصد"، وأوردت فيها عدداً من الشهادات التي عبرت عن حفاوة الإسرائيлиين الشديدة بالتحولات التي شهدتها مصر، وآخرها حظر أنشطة حركة حماس باعتبارها منظمة "إرهابية" كما أوردت شهادات أخرى عبرت عن المدى الذي بلغه الاسترخاء الإستراتيجي الإسرائيلي في ظل تلك التحولات.

واطمئنان قادة الدولة العربية إلى جسور التفاهم الممتدة مع بعض الأنظمة الخليجية انطلاقاً من التقاء المصالح بين الطرفين في مواجهة "الخطر الإيراني".

ولئن توقع البعض مني أن أفي بما وعدت حين طرحت السؤال: إلى أين نحن ذاهبون؟ فإنني أرجو لا يحسنوا الظن بي إلى الحد الذي يصور لهم أنني على علم بالآلات التي تتنظر العالم العربي في نهاية المطاف، وهو ما لا أستطيع أن أدعوه، لكنني فقط أستطيع أن أشير إلى بعض علامات الطريق الذي نمضي عليه، متمنياً أن ذلك يساعدنا على تصور الآلات في الأجل المنظور على الأقل.

و قبل أن أعرض ما عندي من تلك العلامات فإبني أضيف إلى ملف الشهادات الكاشفة واحدة مهمة نشرتها جريدة "الشروق" في 7/3 الحالي، لمراسلها في واشنطن الأستاذ محمد المنشاوي، الذي هو في الوقت ذاته خبير بمعهد الشرق الأوسط في واشنطن ومتخصص في السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط.

في شهادته، ذكر الأستاذ المنشاوي ما نصه: لم يتخيّل أكثر العرب تشاوئاً ما أن يأتي اليوم الذي يذكر فيه مسؤول أميركي أنه "لو غطى وجوه من قابليهم من كبار المسؤولين خلال زيارته الأخيرة للرياض وأبو ظبي وتل أبيب واستمع إلى تصوّراتهم بخصوص قضايا ومستقبل الشرق الأوسط، فلن يستطيع التمييز بين السعودي أو الإماراتي أو الإسرائيلي، حيث إن آراءهم متطابقة حيال تلك القضايا". وهي شهادة أكثف بها دون تعليق، وأزعم أنها تشكّل إحدى علامات الطريق الذي نحن ماضون عليه.

(2)

ما عاد خافيا على أحد أن الدولتين المذكورتين تبننا موقفاً مقاطعاً ورافضاً للربيع العربي منذ لاحت بوادره عام 2011، وكانتا من أشد أنصار الرئيس الأسبق حسني مبارك ونظامه، حتى كان عدم مساندة واشنطن لمبارك إحدى نقاط الخلاف بينهما وبين الإدارة الأميركيّة، ولم تكتف الدولتان بمقاطعة الربيع العربي ولكنهما لم تتوقفا عن محاصرته ومحاولته إجهاضه في جميع الدول التي بلغتها أصواته، في مشرق العالم العربي ومغربه.

والقرائن الدالة على ذلك كثيرة بعضها خفي تكفلت به الأجهزة الأمنية، وأظهرها مورس من خلال الدعم المالي الذي بدأ ياذخا في محاولة ضد رياح الربيع ودعوات التغيير التي استصحبتها، في حين ظل ممسكاً وممتنعاً عن الدول التي بلغتها أصوات التغيير.

وقد بدا ذلك موقفاً مفهوماً اقتضاه الحرص على الدفاع عن النفس وتؤمن الداخلي من عواقب التفاعل مع أصوات الربيع التي انعشت الآمال في مختلف أرجاء العالم العربي.

غير أن قوة تلك الأصوات بدت مقلقة بحيث دفعت الدولتين إلى محاولة وقف ذلك المد خارج حدودها بمختلف السبل، الأمر الذي يسوغ لنا أن نقول إنّهما احتلتا مقعد قيادة الثورة المضادة، وكان تحركهما مشهوداً في ذلك الاتجاه على مختلف المستويات، السياسية والاقتصادية والإعلامية.

ما حدث في مصر كان الإنجاز الأكبر الذي تحقق في ذلك المسعى. ورغم أن خلفيات التغيير لم تكتشف وقائعها بعد، إلا أن اندفاع البلدين في الحفاوة به ودعمه بعد حدوثه كاف في دلالته. إن لم يكن الدافع إلى الإسراع في إثبات الحضور في قلب المشهد المصري مقصوراً على محاولة الفوز بالدولة العربية الأكبر، وإنما اعتبر ذلك باباً أوسع لصد رياح الربيع العربي وإضعافه حيثما وجدت.

رسالة البلدين كانت واضحة من البداية دون إعلان، فهما بالأساس ضد ثورة 25 يناير/كانون الثاني ومع التمرد (الممحور فيهما) الذي أفضى إلى انتفاضة 30 يونيو/حزيران 2011 ومهد لنظام الثالث من يوليو/تموز.

ولست أشك في أن الجموع التي خرجت يوم 30 يونيو/حزيران لم تخطر على بالها التداعيات اللاحقة للحدث، علماً بأن خروجها آنذاك كان إرباً عن السخط على أداء حكم الإخوان والدعوة إلى إجراء انتخابات رئيسية مبكرة، لكن ما حدث بعد ذلك لم يكن مفاجئاً في خبرة الأداء السياسي. أن يمضي الغضب في اتجاه، ثم يقطف ثماره آخرون ويوظفون الغضب باتجاه آخر.

يغرينا المشهد بالمقارنة بما جرى في عصر الرئيس الأسبق أنور السادات الذي انتسب إلى ثورة 23 يوليو/تموز 52 ثم أخرج البلد من مسيرة النضال العربي ومن الصف العربي، ذلك أن ما حدث في مصر مؤخراً يكاد يكرر تلك التجربة.

فما جرى في الثالث من يوليو/تموز 2013 انتسب بدوره إلى ثورة 25 يناير/كانون الثاني 2011 واعتبر انتفاضة 30 يونيو/حزيران امتداداً لها، ثم أخرج مصر من الربيع العربي.

لقد كانت السعودية أول دولة هنأت القاهرة بالتغيير الذي تم ولحقت بها الإمارات، ثم توالت رسائل الحفاوة بالوضع المستجد مع الحط من شأن ثورة 25 يناير/كانون الثاني في إعلام البلدين..، وبعد ذلك انهالت صور الدعم والمساندة، التي توالت من باب الاقتصاد وهو الوتر الحساس في أزمة الوضع المصري.

وحتى الآن تم ضخ 16 مليار دولار في الخزانة المصرية. وقرأنا عن مليون مسكن جديد ستقوم الإمارات بتمويلها في مصر، وقيل إن هناك مليوناً أخرى من مجلس التعاون الخليجي.

كما تحدثت الصحف عن آلاف رؤوس الماشية التي تم الاتفاق عليها لإغراق الأسواق المصرية بها. وما تم في الشق الاقتصادي تكرر في عدة مجالات أخرى، أعلن عن بعضها ولم يعلن عن البعض الآخر.

لست أستبعد أن يكون كل ذلك مسكننا بمشاعر التضامن والمرءة والمقدرة، إلا أنه لم يكن بغير مقابل، ذلك أن الدول -

حتى إذا كانت شقيقةـ ليست جمعيات خيرية، ولكن لها حساباتها ومصالحها التي تتواхدا فيما تبعه من سياسات.

(3)

في الخامس من شهر مارس/آذار الحالي سحبـت ثلاثة دول خليجية سفراءـها من قطر لأول مرة في تاريخ مجلس التعاون الخليجي، والدول الثلاث هي السعودية والإمارات والبحرين.

وبعد ذلك بأيام قليلة جرت مناورات عسكرية مصرية إماراتية في أبو ظبي حملـت اسم زايد (1)، وفي الوقت الذي كانت المناورات جارية فيه زار مسقط الرئيس الإيراني حسن روحاني في مسعى لتوثيق العلاقات وتنسيق التعاون مع سلطنة عمان، ما الذي يعنيه ذلك؟

عند القراءة المتأنية ستدركـ أن سحبـ السفـراء كان بداية انهيار وفكـ مجلس التعاون الخليجي الذي تأسـس عام 1981. يعنيـ أيضاً أنـ الإمارات أرادـتـ أن تستـقـويـ بمصرـ فيـ مواجهـةـ قطرـ منـ خلالـ المناورـاتـ المشـترـكةـ، وهوـ ماـ عبرـ عنهـ الصـحفـ المـصـرـيةـ التيـ ذـكـرـتـ أنـ المناورـاتـ بـعـثـتـ بـرسـالةـ إـلـىـ قـطـرـ وـتـرـكـياـ (ـالـبعـضـ أـضـافـ الـولاـيـاتـ الـمـتـحـدةـ).

يعـنيـ ذلكـ أـيـضاـ أنـ إـيرـانـ اـرـتفـعـتـ أـسـهـمـهاـ أـكـثـرـ فـيـ الـخـلـيجـ، بـعـدـ التـفاـهـمـاتـ الـتيـ حدـثـتـ بـيـنـ واـشـنـطـنـ وـطـهـرانـ بـخـصـوصـ الـمـشـرـوعـ النـوـويـ الـإـيرـانـيـ، إـذـ وـجـدـتـ أـنـ الـظـرفـ بـاـتـ مـوـاتـيـاـ لـمـدـ مـزـيدـ مـنـ الـجـسـورـ مـعـ الـسـلـطـةـ الـتـيـ شـهـدـتـ التـفاـهـمـاتـ الـإـيرـانـيـةـ الـأـمـيـرـكـيـةـ (ـأـعـلـنـ يـوـمـ الـأـحـدـ 16ـ أـنـ إـيرـانـ تـعـتـمـدـ بـنـاءـ عـشـرـ مـحـطـاتـ نـوـوـيـةـ عـلـىـ سـوـاـحـلـ الـخـلـيجـ وـبـرـ عـمـانـ).

هلـ هـذـاـ كـلـ شـيـءـ؟.. لـيـسـ بـالـضـبـطـ، لـأـنـ يـعـنـيـ فـيـ الـوقـتـ ذـاتـهـ أـنـ الـأـورـاقـ بـصـدـ الـاخـتـلاـطـ فـيـ الـخـلـيجـ، الـأـمـرـ الـذـيـ يـؤـديـ إـلـىـ ظـهـورـ خـرـائـطـ جـديـدـةـ لـهـ تـسـتـصـبـ تحـالـفـاتـ عـرـبـيـةـ جـديـدـةـ سـتـكـونـ مـصـرـ طـرـفـاـ فـيـهاـ، وـسـتـقـومـ السـعـودـيـةـ وـمـعـهـ الـإـمـارـاتـ بـدـورـ الـقـيـادـةـ لـهـاـ.

سنـنـحـيـ جـانـبـاـ مـظـاهـرـ الـفـوضـيـ الـمـشـرـقـيـ الـتـيـ تـلـوحـ فـيـ سـوـرـيـاـ وـالـعـرـاقـ وـبـدـرـجـةـ أـوـ بـأـخـرـىـ لـبـنـانـ، وـلـنـ تـنـدـحـثـ عـنـ أـصـدـاءـ الـدـاخـلـ فـيـ السـعـودـيـةـ وـالـإـمـارـاتـ حـيـثـ مـكـنـتـهـاـ التـواـزنـاتـ الـجـديـدـةـ مـنـ تـشـدـيدـ الـقـبـضةـ الـأـمـنـيـةـ وـإـحـكـامـ قـعـمـ أـصـوـاتـ دـعـاءـ الـإـلـاصـاحـ الـذـينـ أـصـبـحـوـاـ كـإـرـهـابـيـنـ، وـهـوـ مـاـ لـاحـظـنـاـ مـنـ مـحاـكـمـاتـ النـشـطـاءـ فـيـ الـبـلـدـيـنـ، الـتـيـ طـالـتـ حـتـىـ الـمـغـرـدـيـنـ الـذـينـ يـسـجـلـونـ خـواـطـرـهـمـ عـلـىـ مـوـقـعـ "ـتـويـترـ".

لـنـ نـخـوـضـ أـوـ نـفـصـلـ فـيـ هـذـاـ أـوـ ذـاكـ، لـكـنـنـ سـنـجـدـ أـنـاـ بـصـدـ خـرـائـطـ جـديـدـةـ لـلـاستـقطـابـ. وـاـحـدـةـ تـضـمـ السـعـودـيـةـ وـالـإـمـارـاتـ وـالـبـحـرـيـنـ وـبـدـرـجـةـ مـاـ الـكـوـيـتـ. وـمـعـهـ مـصـرـ وـالـأـرـدـنـ وـإـسـرـائـيلـ، وـالـثـانـيـةـ تـضـمـ قـطـرـ وـتـرـكـياـ وـتـونـسـ وـبـدـرـجـةـ مـاـ إـيرـانـ وـسـلـطـةـ عـمـانـ. وـهـنـاكـ دـائـرـةـ الـدـولـ الـتـيـ تـقـفـ فـيـ "ـالـبـيـنـ بـيـنـ"ـ مـثـلـ الـمـغـرـبـ وـالـسـوـدـانـ وـالـيـمـنـ وـمـوـرـيـتـانـيـاـ وـالـجـزـائـرـ. (ـلـيـبـيـاـ لـاـتـزالـ تـبـحـثـ عـنـ مـوـقـعـ).

لـسـنـاـ بـنـالـغـ إـذـاـ قـلـنـاـ إـنـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ مـقـبـلـ عـلـىـ حـالـةـ مـنـ الـفـوضـيـ الـتـيـ تـظـلـ الـأـبـوـابـ خـلـالـهـاـ مـفـتوـحةـ أـمـامـ مـخـتـلـفـ الـاحـتمـالـاتـ،ـ سـلـبـيـةـ كـانـتـ أـمـ اـيجـابـيـةـ.

(4)

إـذـاـ جـازـ لـيـ أـنـ أـسـتـخلـصـ عـلـامـاتـ أـخـرىـ مـنـ هـذـهـ الـخـلـفـيـةـ فـلـعـلـيـ أـوجـزـهـاـ فـيـماـ يـلـيـ:

- إـذـاـ كـانـتـ مـصـرـ بـصـدـ الـخـروـجـ مـنـ الـرـبـيعـ الـعـرـبـيـ وـلـوـ مـؤـقـتاـ، فـالـقـدـرـ الثـابـتـ أـنـاـ خـرـجـتـ مـنـ دـائـرـةـ التـأـثـيرـ، عـرـبـيـاـ وـإـقـلـيمـيـاـ وـفـيـ أـوـضـاعـهـاـ الـاقـتصـاديـةـ الـمـتـرـدـيـةـ وـالـسـيـاسـةـ الـمـأـزـوـمـةـ فـإـنـاـ أـصـبـحـتـ مـفـعـولـاـ بـهـ وـلـيـسـتـ فـاعـلاـ.

- إـنـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ لـمـ يـعـدـ بـحـاجـةـ إـلـىـ مـؤـامـرـاتـ تـحـاكـ ضـدهـ فـيـ الـخـارـجـ، لـأـنـ صـرـاعـاتـ دـولـهـ تـحـقـقـ لـأـيـ مـتـآـمـرـ عـلـيـهـ مـرـادـهـ دـوـنـ حـاجـةـ لـبـذـلـ أـيـ جـهـدـ مـنـ جـانـبـهـ، حـتـىـ أـزـعـمـ بـأـنـ الـصـرـاعـ الـعـرـبـيـ الـعـرـبـيـ أـصـبـحـ الشـاغـلـ الـأـسـاسـيـ "ـوـالـقـضـيـةـ الـمـرـكـزـيـةـ"ـ لـلـأـنـظـمـةـ

- إن التدهور الحاصل في منطقة الخليج الذي لا يزال سياسيا حتى الآن، مرشح لأن يتطور إلى حصار اقتصادي لقطر يضغط عليها بحيث يقطع الطريق البري الذي يوصل إليها من السعودية، وهناك تسريبات لا أريد أن أصدقها تتحدث عن احتمالات المواجهة العسكرية بين البلدين، خصوصا إذا تحققت الدعوة إلى إقامة اتحاد بين الدول الثلاث السعودية والإمارات والبحرين.

- إن ما حدث يمثل ضربة موجعة للربيع العربي، ليست بالضرورة نهاية له، رغم أن إعلام الثورة المضادة مستمر في تشويهه واعتباره كارثة حلت بالأمة، لكنني أزعم أننا بصدّ حالة من الجزر والتراجع مماثلة لما شهدته ثورات أخرى. وينزل الباب مفتوحاً لتحول ذلك الجزر إلى مد يعيد الأمل والثقة في الربيع. على الأقل فذلك ما نلاحظه في تحرك شباب الثورة في مصر، الذي يرفض الاستسلام للتراجع ويقاومه بشدة.

- إن قضية فلسطين لم يعد لها ذكر في الخطاب السياسي العربي الراهن. ولذلك فإنني أعتبر أن إسرائيل هي الفائز الأكبر في التحولات الراهنة حيث لم تعد سياساتها محل اعتراض أو حتى اكتراث من جانب الأنظمة العربية. ولا نستطيع أيضا أن نتجاهل ارتفاع أسهم إيران وتقوية ساعدها خليجياً ومشرقياً.

لا أعرف إلى أين نحن ذاهبون بعد ذلك. لكن الذي أعرفه أننا سأurons على طريق الندامة، وليس السلام بأي حال. والله أعلم بعد ذلك بالآلات.

الجزيرة

المصادر: